

# الرؤية القومية لقضية فلسطين

## عند عصمت سيف الدولة

### أحمد ثابت

استاذ مساعد ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

#### المنهج التفسيري والمنهج العلمي لتغيير الواقع

الدكتور عصمت سيف الدولة هو صاحب فكر كفاحي للتغيير الثوري لواقع التجزئة والإقليمية وصولاً إلى مجتمع ودولة الوحدة العربية. وقد صاغ في سبيل ذلك الهدف منهجه العلمي من أسس الاشتراكية العربية ونظريته في الثورة العربية ثم قام بإعمال منهجه العلمي الثوري على قضايا عديدة من القضايا والأزمات العربية ثم القضية الفلسطينية. وعصمت سيف الدولة هو ابن لمرحلة التحرر من الاستعمار وبناء الاستقلال والاشتراكية والوحدة المصرية- السورية والمد القومي التحرري العربي المعادي للإمبريالية والتجزئة واغتصاب فلسطين والخطر الصهيوني ، وتلك المرحلة التي حمل المد القومي فيها بقيادة ثورة ٢٣ تموز/ يوليو وزعيمها جمال عبد الناصر أعباء ومسؤوليات التصدي للتحديات والمخاطر. ومن هنا لا يكون من المستساغ أن نطلب من عصمت سيف الدولة ولا المفكرين القوميين الثوريين غيره أن يصنعوا لنا نظرية في التفسير المعرفي والسوسيولوجي المركب للواقع والتطورات المجتمعية الشاملة. حيث إن هذه النظرية مطلوب منها أن تتطرق من منهج علمي للبحث وللتنبؤ وللقياس ولوضع فروض علمية قابلة للتحقق الإمبريقي والبحوث الميدانية. هذا مستوى للمنهج العلمي يختص بالتفسير والتحليل والتنبؤ. وهذا لا غنى عنه بالطبع للتعامل مع تجليات وتناقضات الواقع الاجتماعي المتغير، وهذه مهمة الباحثين والمفكرين من الأجيال التالية من أجل ردف الفكر القومي العربي بمنهج علمي للبحث وللقياس ولخلق علاقات افتراضية بين متغيرات وظواهر مجتمعية. أما المستوى الآخر للمنهج فهو ما يتعلق بالأيدولوجيا السياسية الباحثة عن التعامل مع الواقع بقصد تغييره وإحلال النموذج المثالي المبتغى . في هذا الإطار نستطيع أن

نفهم منهج ونظرية عصمت سيف الدولة في الوحدة العربية وفي بناء مجتمع الحرية والوحدة والاشتراكية بحسب الترتيب الذي وضعه وفسره . وفي هذا الإطار أيضاً نتمكن من إدراك كيفية تقويم المنهج في نظرية الثورة العربية الذي صاغه سيف الدولة :

هل هو منهج علمي إنساني لتغيير الواقع ثورياً أم هو منهج رومانسي حالم؟ وهل هو منهج ثوري رافض للواقع : واقع التجزئة والإقليمية واغتصاب فلسطين، أم هو منهج متصالح مع الواقع أو براغماتي؟. منهج عصمت سيف الدولة علمي متناسق داخلياً لأنه يركز ويهتم بمعرفة واستخدام القوانين الموضوعية لحركة التطور الاجتماعي ويمتلك رؤية فكرية محددة للمجتمع المستهدف . ولم يكن مفكرنا القومي الثوري منغلقاً أمام إبداعات غيره من المجتهدين ، بل امتلك الشجاعة ليقول في كتابه عن الناصريين وإيهم : " نستعمل منهجنا فنقول أولاً ما قال لينين من قبل : " من الواقع إلى الفكر إلى الواقع هذا هو الجدل ". وحتى لا تبقى حركة الجدل ثابتة في موقعها من الزمان صاعدة هابطة كما تفعل أقدام الجند وهي تسير في محلها لا تتقدم ، نضعها في تيار الزمان الذي لا يتوقف لتصبح من الماضي إلى المستقبل وهذا هو الجدل ، جدل الإنسان وقانون حركته وحركة المجتمعات " (١).

إن الإنسان هو الفاعل الأساسي في حركة التطور الاجتماعي عند عصمت سيف الدولة ، وقد انتقد المناهج المثالية والمادية والنفعية ( البراغماتية أو الذرائعية الغربية) لأنها أغفلت دور الإنسان كصانع للتطور وكما يصوغ وحده ملامح مستقبله من واقع احتياجه الدائم إلى تطوير واقعه الذي يقف حائلاً أمام تحقيق مطالبه وصورة الحياة الفضلى التي ينشدها (٢) .

إن كل تشكيل حضاري قومي يضع لنفسه رؤى للذات وللعالَم ، وللذات وللآخر، وأنماطاً للتفكير وللسلوك ولسبل التقدم والتحرر. الشرط الوحيد هو أن هذه المنظومة المنهجية يجب ألا تكون عنصرية أو دائرية أو منغلقة أمام طرائق الاستفادة من الحضارات الأخرى .

ومن القراءة المنهجية الدقيقة للفكر القومي الثوري للدكتور عصمت سيف الدولة نلاحظ أنه لم يكن يدعو إلى خصوصية منغلقة أو متميزة تنفي الآخرين من الحضارات والتكوينات الاجتماعية القومية. ولا توجد ثمة شبهة للتفكير العنصري المؤكد على الخصوصية الواقعة خارج التاريخ لديه . فقد تجاوز بمنهجية خلاقية من سبقه من رواد الفكر القومي الرومانسي أو

المثالي الذي وقف عند تأكيد الانتماء العروبي. فعنده أن "الحضارة العربية التي أنشأتها الأمة العربية التي أنشأها الإسلام تتضمن- مثل كل الحضارات- ضوابط للسلوك ومعايير للقيم وحدوداً للنظر خاصة بها . ومن بينها مؤشر منهجي حضاري .. هو الذي يتبعه العربي على السجية وبدون افتعال " (٣).

وتحدد أسس المنهج عند سيف الدولة في ثلاث قواعد رئيسية هي (٤) :

١- أن كل الأشياء والطواهر منضبطة حركتها بقوانين أو سنن حتمية .

٢- أنه في نطاق هذه الحتمية يكون الإنسان حراً في تغيير واقعه.

٣- أن الإنسان هو وحده القادر على التغيير والمسؤول عنه.

يكتشف الإنسان قوانين حركة ثم قوانين حركة مجتمعه مع غيره ودور الحضارة يقف عند ترسيخ مؤشر منهجي للرؤية. وعند هذا الحد يمكن أن نتعامل مع منهج عصمت سيف الدولة ، أما ما يتعلق بنظرية تفسير كيفية تفاعل الإنسان أو الفئات أو الطبقات كفاعلين اجتماعيين في صورة بنوية وتراكيب هيكلية مثل النخبة أو الحركة الاجتماعية أو القوة وصيرورة تحولات العلاقة بين الفاعلين والمؤسسات القابضة على السلطة والثروة والإعلام والدعاية والأمن ، فهذه مهمة الباحث الاجتماعي الذي يفسر ويتنبأ ويضع معايير الضبط والقياس. وليس مطلوباً أن نقوم فكر عصمت سيف الدولة انطلاقاً من هذه الزاوية المنهجية كما سبق القول.

### تساؤلات منهجية

هناك أسئلة تطرح نفسها هنا وهي :

١- إذا كان الدكتور عصمت سيف الدولة قد دعا القوميين على عمومهم ، والناصرين بصفة خاصة ، إلى الانطلاق في آفاق الاجتهاد الرحبة وعدم التوقف عن الإبداع المتواصل فلماذا وضع هو نفسه قيوداً منهجية ونظرية على إمكانيات تطوير منهجه الجدلي ونظريته في الوحدة العربية التي طبقها إلى حد كبير على رؤيته القومية لقضية فلسطين؟

٢- هل كانت المرجعية النظرية والمعرفية للفكر القومي عند عصمت سيف الدولة خصوصاً حول نظريتي الوحدة العربية والوجود القومي- وفي داخله الفلسطيني- هي مرجعية أوروبية أساساً أم مرجعية مستمدة من صيرورة صراع العرب مع الغزوة الصليبية ثم الغزوة العثمانية؟ (٥) .

٣- هل توقفت نظرية الوجود أو نظرية التشكيل القومي ونظرية الوحدة العربية وفي داخلهما مكانة فلسطين في الأمة العربية عند المنطلق " السليبي " ، بمعنى الاكتفاء بمجرد تحديد مقومات الأمة والقومية، كما يقول نقاد الفكر القومي بتعميم وإطلاق ، ومن ثم شعرت بـ (الاكتفاء النظري الذاتي) وكفت عن تحليل وتنظير عنصر " المشروع البنائي " أو مشروع التغيير والإعمال بما يسبغ على هذه المقومات معنى؟ (٦) أم أن نظرية عصمت سيف الدولة قد تعرضت لهذا المشروع ؟ والواقع أن هذا السؤال له مشروعيته المنهجية وجاذبيته إذ هو يحدد مدى فعالية النظرية القومية فلا يكفي بالطبع مجرد الإعلان عن إثبات وجود مقومات وعناصر الأمة العربية واكتمال تشكلها وحاجتها الطبيعية والمنطقية للوحدة العربية، ويصير من المطلوب صياغة مشروع التغيير لتحقيق النموذج النظري في الواقع المجتمعي.

### حقيقة قضية فلسطين

تتعلق حقيقة مشكلة فلسطين عند مفكرنا العربي الكبير من منهجه الجدلي الاجتماعي العام ، وذلك على النحو التالي :

"كل مشكلة اجتماعية لها حقيقة واحدة مهما اختلف فهم الناس لها وبصرف النظر عن مدى إدراك صاحبها لحقيقتها. وان أية مشكلة اجتماعية ليس لها إلا حل صحيح واحد في واقع اجتماعي معين في وقت معين. قد يكون لها أكثر من حل خاطيء قاصر أو متجاوز أو مناقض يحاول صاحبه فيفشل شي حلها. ولكن حلها الصحيح لا يمكن إلا أن يكون واحداً بحكم أن الواقع الاجتماعي واحد (٧) . ويتابع رؤيته بالقول : " للمشكلات الاجتماعية في الأمة حلول موضوعية يحددها الوجود القومي ذاته بما يتفق مع التقدم القومي . والصراع الاجتماعي حول المشكلات الاجتماعية لا يعني أن تلك الحلول غير معروفة أو غير قابلة للمعرفة ، بل يعني تماماً أن الصراع يدور بين قوى تزعم كل منها أنها تستهدف الحل

الموضوعي الصحيح . وقد يكونون كلهم خاطئين، ولكن الذي لا يمكن أن يكون أبداً هو أن يكونوا كلهم على حق في ما يزعمون " (٨).

تكونت فلسطين في إطار وحدة الأرض العربية وعمليات التفاعل التاريخي بين المقيمين فيها والمقيمين في بقية ربوع الوطن العربي ، وشكل التفاعل تطوراً تقدماً انصهرت فيه الجماعات والشعوب السابقة على التكوين القومي العربي ، وصارت به أمة واحدة . وبينه مفكرنا القومي إلى أنه لا يحتج بأية وقائع تاريخية سابقة على التكوين القومي العربي . وتبدو الصلابة المنهجية عنده من دقة هذه المقولة لأن التكوين القومي العربي هذا عرف منذ بدايته تواصل الحياة الاجتماعية والمعيشية للشعب العربي في فلسطين وينفي بذلك ( من دون أن يقول صراحة) المزاعم والأساطير الصهيونية حول التواصل التاريخي للجماعات اليهودية التي هجرت بالفعل من شرق أوروبا وروسيا إلى فلسطين ، وخرافة الاستنادات الصهيونية إلى مقولة " الحق التاريخي " في فلسطين ، وكيف ذهب إليها الصهاينة كشعب بلا أرض إلى أرض بلا شعب كما زعم الزعيم الصهيوني زانجويل وغيره مثل هرتزل ونوردو وهيس (٩).

ومن ثم فإن تهجير الصهاينة المؤمنين بالمشروع الصهيوني إلى فلسطين هو اعتداء على وحدة الوجود القومي للأمة العربية وهو انتقاص من المجتمع العربي وكذلك " هو فسخ علاقة تاريخية بين الشعب والأرض لا بد من أن يزول ليعود الشعب إلى الأرض وتعود الأرض إلى الشعب فتبقى الأمة العربية " كما هي " لا أكثر. وكل هذا بصرف النظر عن جنس أو ديانة أو لون أو مبادئ أو نيات المعتدين، وبالتالي فإن حق الشعب العربي في استكمال وجود أمته باسترداد فلسطين لا يتوقف على ما إذا كان المعتدون يهوداً أو غير يهود رأسماليين أو من الذين لا يملكون شيئاً يخسرونه ، كما لا يتوقف على أي وجه وفي أي ظروف على موقف الدول من هذا الحق سواء كانت دولاً كبرى أو دولاً صغرى منفردة أو مجتمعة في منظمة هيئة الأمم المتحدة " (١٠) .

لا يستند الموقف القومي من قضية فلسطين عند عصمت سيف الدولة ومعه معظم اتجاهات الفكر القومي والناصرى إلى أسس الدين أو العرق أو العنصر، لأن تلك الأسس قد تطرح تداعيات في منتهى الخطورة. وقد يؤدي الإيمان بها ، وخاصة عند التركيز على الأساس

العقائدي إلى الترويج لأهداف ومزاعم ومقولات قد تدعم الآلة الأيديولوجية والدعائية الصهيونية ولو بشكل غير مباشر، مع أننا إزاء هجرات صهيونية متعاقبة لاغتصاب فلسطين ، بل إزاء ما مارسته المنظمات الصهيونية نفسها من حملات قتل وارهاب وترويع لليهود الذين رفضوا الهجرة القسرية إلى فلسطين واعترضوا على أساطير المشروع الصهيوني (١١).

يرتب سيف الدولة عدة نتائج مهمة يتميز بها موقفه القومي من مشكلة فلسطين على النحو التالي (١٢):

أولاً : لا يتأسس الصراع الذي تثيره مشكلة فلسطين ولا ينطلق على أساس حدوثه بين الشعب العربي وبين "اليهود" بحسبانهم يهوداً . فالعروبة قومية واليهودية دين وقد يكون العربي يهودياً ويبقى عربياً، بينما اليهودي يمكن أن ينتمي إلى أي من المجتمعات من دون تناقض بين أصله الاجتماعي ومعتقده الديني . وتصبح مشكلة فلسطين مشكلة أرض مغتصبة وليست مشكلة تبشير بأحد الأديان . إذ عندما يصبح الدين بديلاً من القومية ثم تطرح مشكلة فلسطين ينتهي بهم الأمر إلى اقتسام الوطن العربي في ما بين الأديان الثلاثة على الأقل . وأياً كانت النسبة بين الأقسام فسيكون على كل مسلم أو مسيحي أن يخرج من أرض اليهود في فلسطين .

ثانياً : لا يقوم الصراع الذي تثيره مشكلة فلسطين حول النظم الاجتماعية في الأرض العربية بين الرجعيين والتقدميين، بل هو صراع حول الأرض المغتصبة ومن هو صاحب الحق فيها . ولأن الأرض هي مصدر القدرات المادية للتقدم الاجتماعي فإن اغتصابها من الشعب العربي يعوق تقدمه، ومن ثم فالصراع ليس على ملكية أدوات الإنتاج في هذه الأرض العربية.

ثالثاً : ولأن مشكلة فلسطين هي مشكلة اغتصاب أرض عربية في المبدأ، فهي بهذه المثابة لا تعتبر مشكلة دولية أي لا تثور بين الدول ولا بين الأمة العربية من جهة ، والمجتمع الدولي من جهة أخرى. والمجتمع الدولي يتدخل لمصالح خاصة له وحتى إذا كنا ننشد السلام العالمي ونحتاج لتأييد الدول والمجتمع الدولي فلأن لنا مصالح تحركنا في ذلك. ومن هنا فإن مقياس صحة أي موقف أن يكون مساعداً في حل المشكلة أو أن يكون حلاً لها .

على هذا الأساس فإن مشكلة فلسطين ليست مشكلة دولية بهذا المعنى ، وهي ليست مشكلة سلام عالمي. فهناك بالفعل اعتراف من دول عديدة بإسرائيل ، ولكن لا يمكن الاحتجاج بذلك لتغيير أو لتشويه حقيقة المشكلة. فالدولة التي تعترف بدولة أخرى في فقه القانون الدولي لا تلتزم إلا بإرادتها الخاصة ولا تستطيع أن تجبر الآخرين، كما أن الدولة التي تعامل إسرائيل كدولة قائمة لا يعني ذلك شرعية قيام إسرائيل على الأرض العربية المغتصبة ، وشرعية التعامل مع إسرائيل لا تضيء شرعية على دولة إسرائيل نفسها.

تتبع أهمية المنهج الجدلي هنا من أنه يظهر بجلاء الحالة المأساوية التي يعيش فيها من لا يجد من الحكام العرب أو المثقفين والكتاب المتحالفين معهم سوى قرارات الأمم المتحدة ومنها القرار الصادر بقبول إسرائيل عضواً في المنظمة الدولية تحت مسمى الشرعية الدولية. وينبهنها المفكر القومي سيف الدولة إلى أنه حتى الاعتراف بدولة إسرائيل لا يتضمن في الواقع الالتزام بالمحافظة على وجودها وإلا لصار الاعتراف المشروع دولياً حماية غير مشروعة ما يترتب عليه خطأ جسيم من مروجي مقولة إنه ما دامت الدولة قد اعترفت بإسرائيل فإنها لن تسمح بزوالها أبداً . والواقع أن الإصرار الصهيوني الإسرائيلي ذاته على عدم الاعتراف بقرار التقسيم الصادر عام ١٩٤٧ لدولتين "يهودية" وعربية على رغم أنه صادر عن المنظمة الدولية ، وكذلك عدم الاعتراف بشرعية اعتراف ما لا يقل عن مائة دولة بالدولة الفلسطينية ، هذ الإصرار فيه الرد الكافي على المقولة السابقة.

لا تتغير - إذن - حقيقة مشكلة فلسطين فيما لو اعترفت أي من الدول العربية نفسها بإسرائيل أو حتى الدول العربية مجتمعة أو حتى شعب فلسطين نفسه لسببين رئيسيين هما (١٣) :

١- أن الأمة العربية تكوين تاريخي مشترك بين الأجيال المتعاقبة ، ومن ثم فليس من حق الشعب العربي كله حتى ولو اجتمع تحت رايات دولة الوحدة أن يتنازل عن أرض فلسطين أو يقبل الوجود الصهيوني على الأرض المغتصبة.

٢- ولأن الأرض العربية شركة بين الشعب العربي فليس من حق أي جزء من هذا الشعب ولو كان شعب فلسطين نفسه أن يتنازل عن أرض فلسطين أو يقبل الوجود الإسرائيلي فيها . فهو بذلك يتصرف في ما لا يملكه وحده لأنه ملك مشترك بينه وبين باقي الشعب العربي .

يوجه سيف الدولة نقداً شديداً لمن يعتقدون أن العدوان الصهيوني موجه ضد قطر عربي أو أقطار عربية بعينها بحيث تنحصر المشكلة بين إسرائيل وهذا القطر أو تلك الأقطار. فالصهيونية كمشروع استعماري استيطاني تنبتهت إلى المخاطر التي تتعرض لها إذا ما سمحت للشعب العربي كله بأن ينمو ويتقدم لأسباب ثلاثة رئيسية (١٤)

أ - لأنه بقدر ما يتحرر الشعب العربي يستطيع أن يحل مشكلة فلسطين .

ب- لأن محاولات التقدم ولو في ظل الإقليمية لن تلبث أن تعلم الجادين فعلاً في ممارسة التنمية أنهم يفتقدون الإمكانيات المادية والبشرية الوفيرة المتاحة في الأمة العربية وأن التقدم لا يقوم على أساس التجزئة. إن مشكلة فلسطين هي مشكلة تخلف ، وإن الوجود الإسرائيلي قيد ثقيل على محاولات التقدم الاجتماعي .

ج- لأن التنمية في ظل التحرر توفر أفضل إمكانيات التحرر ومن هنا لا يكون غريباً ما نلاحظه من أن مشكلة فلسطين تزداد حدة كلما تحققت في الوطن العربي خطوة تحررية ، وأن الصراع ضد الصهيونية يصبح أكثر شراسة كلما تحققت خطوة تقدمية.

كان مفكرنا القومي ذا عقلية حاضرة تنبئه باستمرار لما يحدث من تغيرات وانحناءات وتراجعات في الأمة العربية بخصوص قضية فلسطين. ومن ذلك أنه رد بصلافة على الزعم بأن القضية الفلسطينية هي قضية خاصة بشعب فلسطين. ورداً على ذلك يعيد سيف الدولة التذكير دوماً بحقيقة المشكلة : " إن وحدة الوجود القومي تعني اختصاص الشعب بالوطن . ولما كان الشعب أمتداداً من البشر على الأرض فإن وحدة الوجود القومي لا تناقض ولا تلغي ولا تنفي ولا تحول دون إقامة جزء من الشعب على جزء من الوطن " .

يبين مفكرنا القومي كيف أفسدت الحركة الصهيونية في أوروبا منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر مختلف الحلول التي اقترحتها الدول الأوروبية لاستيعاب الجماعات اليهودية في المجتمعات الأوروبية وذلك لكي تعد بالإرهاب تارة ضد اليهود الراضين للمشروع ، أو بالتواطؤ مع نابليون وهتلر وبالمرستون وبلفور لتهجير اليهود الصهاينة إلى فلسطين (١٥).

ويشير إلى وثيقة أخرى إلى جانب وثيقته "كامبل بنرمان" وزير المستعمرات ورئيس الوزراء البريطاني الأسبق إلى مؤتمر لندن عام ١٩٠٧ وهي عبارة عن تقرير قدم إلى أحد قادة

الحركة الصهيونية في النمسا " د. فولغانغ فايبست " يذكر كاتيه في عام ١٩٣٧ الذي نشر فيه التقرير في كتاب عنوانه الله أكبر في فرنسا : " إن خلاصة الأسباب الجدية للكفاح من أجل الأرض المقدسة هو موقعها الاستراتيجي وتأثيره في مستقبل المنطقة. فلو عادت فلسطين إلى دولة عربية موحدة تضم مصر لقامت هناك قوة عربية مسلحة تستطيع أن تتحكم في قناة السويس والطريق إلى الهند. أما إذا ظلت فلسطين مستقلة أو أصبحت دولة يهودية فإنها ستقوم عقبة في سبيل إنشاء هذه الدولة الكبرى حتى لو تمت الوحدة بين دولة عربية وأخرى على جانبي فلسطين . إن دولة صغيرة "حاجزة" تقوم على مئة الف كم ٢ على ضفتي نهر الأردن ستحمي كل دولة عربية ضد تدخل أية دولة عربية أخرى .. إن توازن القوى حول قناة السويس يتوقف إذن على استقلال فلسطين عن العالم العربي ، يتوقف على دولة في فلسطين تكون مثل سويسرا عند ملتقى القارات الثلاث. إن هذا الاستقلال يتفق تماماً مع طموح الاستعمار اليهودي، ذلك لأن اليهود وحدهم هم الذين ستكون لهم مصلحة في هذا الاستقلال وليس العرب ، إذ إن هؤلاء سيكونون من الدعاة المتحمسين للاندماج في دولة عربية كبرى (١٦).

الحل القومي لمشكلة فلسطين في خطاب سيف الدولة هو حل إنساني متحضر يدفع عن الفكر القومي اتهامات مضللة ومزاعم مرسلّة وجهها وما يزال أنصار الحوار والتطبيع مع إسرائيل وقبول الكيان الصهيوني كـ "دولة طبيعية" مثل كل دول المنطقة ، ومن أهمها أن القوميين هم أصحاب مقولة "إلقاء اليهود في البحر" وهم أصحاب دعوة عنصرية إلى الترحيل القسري للإسرائيليين خارج فلسطين!! كما ينتقد سيف الدولة أصحاب شعار " فلسطين الديمقراطية " التي تكرر التجزئة وتقتطع فلسطين من أمتها العربية. ورداً على ذلك يرى سيف الدولة أن اليهود العرب ممن سكنوا فلسطين قبل قيام الكيان الصهيوني أو من غادروا الوطن العربي إلى أماكن أخرى لهم حق قومي في الإقامة في ربوع الأمة العربية وفي وطنهم العربي " المشترك " في فلسطين أو في غير فلسطين . والتحاق هؤلاء بدولة الوحدة كفيل بحمايتهم من التعصب وتوفير أسباب الأمن والتقدم الاجتماعي بشرط أن يتوجهوا بالولاء لأمتهم وأن يدركوا أن فلسطين هي جزء من وطنهم العربي الكبير في حين أن مجيء الصهاينة حتى لو

كان بعضهم ممن سكن الوطن العربي وغادره كغزاة لا يعطيهم أي حق في الأرض العربية (١٧).

هكذا يبدو المضمون الإنساني الحضاري للحل القومي الذي يطرحه سيف الدولة.

### تحرير فلسطين والوحدة العربية

الجدل الداخلي بين تحرير فلسطين والوحدة العربية هو جدل منهجي تراكمي عند سيف الدولة وينطلق من الأسئلة التالية (١٨):

١- هل يمكن للنضال في سبيل تحرير فلسطين أن يحقق غايته في غيبة دولة الوحدة أم ان تطورات وتداعيات الصراع الذي نعترف بأنه طويل ومعقد وصعب ستضع المناضلين من أجل تحرير فلسطين أمام اختيار مصيري : فإما إقامة دولة الوحدة وإما التعرض لهزيمة أخرى؟

٢- هل سيكف بعض المناضلين عن القتال ليؤسسوا على الأرض المتحررة دولتهم الفلسطينية المسماة "ديمقراطية" أم سيواصلون النضال حتى قيام دولة الوحدة الديمقراطية؟

يعتبر مفكرنا القومي من القلائل بين رواد الفكر والنضال القومي العرب ممن نقل التكوين القومي العربي المؤسس على قاعدة الأرض المشتركة من الحيز العاطفي المتجسد في نزعة الشعور النفسي إلى الفضاء الاجتماعي التقدمي المتمثل ليس فقط في استقرار السكان ، بل أيضاً من خلال بحث الناس عن حياة أفضل (١٩).

ومن هنا يرى أن المشكلات التي يطرحها الواقع القومي العربي مهما كان مضمونها مشكلات قومية لا يمكن أن تجد حلها الصحيح إلا بإمكانيات قومية وقوى عربية في نطاق المصير القومي. والحل الصحيح هو في التقدم القومي، فقد تتجح الإقليمية وأقطارها بالتصدي لإسرائيل، ولكن ذلك مؤقت. وأنه من الضروري أن يتواصل التصدي في إطار قومي من منطلق وحدوي " وهكذا نعرف من الآن أن فلسطين لن تتحرر في غيبة دولة الوحدة وأنها حتى لو تحررت لن تستطيع أن تحافظ على تحررها إلا في ظل دولة الوحدة. كيف إذن فشلت

وحدة ١٩٥٨ (بين مصر وسوريا) في تحرير فلسطين؟ لأسباب بسيطة.. لأنها كانت استجابة قومية ، ولكنها لم تكن وحدة قومية ، لقد فشلت في أن تتحول إلى وحدة قومية" (٢٠).

ينطلق سيف الدولة في تحديد جدل تحرير فلسطين والوحدة العربية من اعتبار أن الحركة النضالية لتغيير الواقع تشتمل على خمسة عناصر هي : المنطلق ، الغاية ، القوى ، الاستراتيجية ، التكتيك (٢١)، وذلك على النحو التالي :

أولاً : فالمنطلق يتحدد بالوجود القومي للأمة كواقع موضوعي وبواقع الأمة في مرحلة الانطلاق. وفي الواقع أن الأمة العربية موجودة ولكنها مجزأة وفلسطين جزء من الأمة العربية ، ولكن مغتصبة .

ثانياً : وبالنسبة للغاية فإنه لما كانت الصهيونية اغتصبت جزءاً من الوطن العربي وحيث إن كل دولة عربية تستأثر بجزء من ذلك الوطن ولما كان ذلك لا يتفق مع وحدة الوجود القومي فإن غاية النضال القومي تتلخص في استرداد الأرض العربية من مغتصبيها وإلغاء التجزئة وإقامة دولة عربية واحدة عليها بما فيها فلسطين.

ثالثاً : وعن القوى فإن القوى المناضلة من أجل الوحدة لن تستطيع إنجاز النصر النهائي إلا إذا كانت قوى قومية تضع نصب أعينها هدف الوحدة وإلا كانت قوى إقليمية. وهكذا تكون وحدة القوى القومية شاملة المناضلين في معركة فلسطين ولكنها تنفي تجزئة القوى إلى قوى قومية وقوى فلسطينية".

رابعاً : ولأن الاستراتيجية تتحدد بالضرورة بالوحدة الموضوعية للمشكلات التي يطرحها الواقع القومي، فمن المهم أن تكون استراتيجية واحدة تصل بين الواقع القومي والمصير القومي . ويشكل التحرر المرحلة الأولى من استراتيجية النضال من أجل الوحدة . وهكذا تدخل معركة تحرير فلسطين في إطار المرحلة الاستراتيجية الأولى من النضال القومي من أجل الوحدة العربية : مرحلة التحرر. ويصح القول بأن تحرير فلسطين هو الطريق إلى الوحدة بشرط أن نفهمه على أنه طريق دخول "فلسطين" إلى دولة الوحدة العربية. وكلمة - من جانب آخر - انتصرت القوى القومية في ميدان المعركة وجهت قوتها إلى الساحات الأخرى إلى أن تنجز الوحدة العربية الشاملة. و"هكذا يكون النضال القومي ملتزماً بسحق الإقليمية

والغاء التجزئة في الأجزاء المتحررة وإقامة دولة الوحدة النواة، ثم الدخول بها معارك تحرير وتوحيد باقي الأجزاء. وتضاعف القدرة على النصر - هنا- لا شك فيه، ولكنه ليس مصدر الالتزام بتحقيق الوحدة النواة والدخول بها معركة التحرير، بل مصدره الموقف القومي العقائدي . وعلى هذا يصح القول بأن الوحدة هي الطريق إلى تحرير فلسطين بشرط أن نفهمه على أنه طريق الوحدة النواة إلى الوحدة الشاملة".

خامساً : وبالنسبة للتكتيك فهو لا يتوقف على القوى القومية ، بل على ظروف المعارك وقوى الأعداء وأساليبهم وهدفهم. ولا بد من أن تلتزم القوى القومية هنا بالأسلوب العلمي في المواقع التكتيكية لهزيمة القوى المعادية فيجب ألا تقع بقبول نصر تكتيكي يكون على حساب الغاية الاستراتيجية.

يجيب سيف الدولة بعد ذلك عن أسباب عدم تحقق الحل الصحيح السالف الذكر بما يلي (٢٢):

١- أن القوى القومية لم تضطلع بمسؤولياتها ولو كانت وفية لها لما وقفت أية قوة على الأرض دون الالتحام في قوة مناضلة لتحرير فلسطين وإقامة دولة الوحدة.

٢- تؤدي الإقليمية العربية دوراً معوقاً لأنها تنطلق من أن لكل إقليم عربي تكويناً اجتماعياً قائماً بذاته مستقلاً بمصيره، بل إن الإقليمية ذات مدلول يتجاوز أي إقليم لتصبح علاقة قائمة على تبادل الاعتراف بتجزئة الوطن العربي ما يضع الإقليميين في سلة واحدة ضد الشعب العربي ووحدته القومية. وعلى رغم أن الإقليمية تصدت فعلاً للمعركة دفاعاً عن فلسطين أو عن الأجزاء المحتلة في عدوان حزيران/ يونيو ١٩٦٧ إلا أنها فعلت ذلك من منطلق إقليمي.

لقد استنقلت الإقليمية ذاتاً ومصيراً بالجزء الذي تقوم عليه وتعزله عن أمته العربية، والنظم الإقليمية الحاكمة ستمنع التحام القوى القومية لدخول معركة تحرير فلسطين . وحتى الإقليمية الفلسطينية وإن كانت لها مصلحة مؤكدة في تحرير فلسطين إلا أن الإقليمية سوف تخذلها ، وفي ذلك يرى سيف الدولة أن شعار الاستقلال عن الدولة العربية بمعركة تحرير فلسطين ينطوي حتماً على استقلال الدول العربية عن هذه المعركة.

ما يمكن استخلاصه هنا من التصور القومي لحل مشكلة فلسطين هو أن صاحبه د. عصمت سيف الدولة كان يؤكد دائماً سواء في كتاباته أو في محاوراته مع الشباب العربي وفي

المؤتمرات السياسية العديدة التي تحدث فيها أهمية التحرر الذاتي أولاً ، أي أن يقوم الإنسان بتحرير ذاته بأقصى ما يستطيع من رواسب القطرية والإقليمية والمواجهات الجزئية أو قيود الواقع اليومي ، وكذلك أن يؤدي تحرير الذات إلى التنبه الدائم إلى الغايات الاستراتيجية للنضال القومي التحرري والوحدوي . ولقد كان سيف الدولة- اتصالاً بإصراره هذا- معجباً بكفاح الزعيم الهندي العظيم المهاتما غاندي . وقد أورد رأي غاندي الذي ذكره في ١٤/٧/ ١٩٤٦ عن مشكلة فلسطين واعتبره الحل السلمي الصحيح . فقد قال غاندي ما يلي : "إن فلسطين للعرب بذات المعنى الذي تعتبر فيه إنجلترا للإنجليز وفرنسا للفرنسيين . إنه خطأ بين وأمر غير إنساني أن يفرض اليهود على العرب . إن ما يجري في فلسطين اليوم لا يمكن أن يوجد له مسوغ من أي قانون أخلاقي للسلوك .. إنها جريمة ضد الإنسانية أن يقبر العرب الأعداء لكي يتخذ اليهود كل فلسطين أو جزءاً منها وطناً قومياً لهم . إن التصرف الأمثل هو الإصرار على معاملة اليهود معاملة عادلة في أي مكان ولدوا ونشأوا فيه " (٢٣).

وبالطبع لا يمكن إنكار الأهمية القصوى لعنصر التطهير الذاتي أو التحرر الذاتي في الإبقاء على الثوابت الاستراتيجية والغايات البعيدة المدى للنضال الثوري والذي تقوده الكوادر الثورية الوحدوية ، بيد أن تركيب قضية فلسطين وتعقيدها البالغ ليسا بالطبع في ما يتعلق بأبعادها الدولية والعالمية . فهذا لا يشكل سندا قوياً أو حتى ضعيفاً في النيل من صلابة الموقف القوي من هذه القضية ، ولكن في ما يتعلق بمستويات الجدل والتداخل بين أبعاد قضية فلسطين نفسها، فإن التصور القومي للدكتور عصمت يبدو غامضاً أحياناً ، وأحياناً أخرى فإن كتاباته لم تف هذا الجانب حقه . إن فلسطين لم تعرف بالفعل تكون الدولة القطرية أو الإقليم القطري ، ولم تعرف حكومة أو جهازاً تنفيذياً مؤهلاً لتكوين دولة ولو قطرية. كانت كما نعرف إما قضاء - أي أقل من ولاية- في ظل الحكم العثماني أو جزءاً تابعاً لسوريا بتقسيماتها في العهد العثماني ، ثم عانت الهجرات الصهيونية ومخططات التخريب والإبادة والتدمير للعصابات الصهيونية، وكان الوجهاء والقادة الكفاحيون أنفسهم من زعماء العشائر والبيوتات الفلسطينية طوال الانتداب البريطاني ولم يقدر لحكومة عموم فلسطين التي أنشأتها الجامعة أن تتواجد على الأرض الفلسطينية وسرعان ما اختفت بعد حرب ١٩٤٨ (٢٤).

فهل يمكن القول بأن إحدى مهام نضال القوى القومية العربية عموماً والفلسطينية خصوصاً وهي تثبيت مواقع انطلاق كفاحي ضد الاغتصاب الصهيوني في فلسطين تتعارض مع الموقف القومي؟ إنها لا تتعارض بالضرورة حتى لو وصل الأمر إلى حد تركيز القوى القومية على تجسيّدات لكيان فلسطيني مسلح ويشكل بؤرة ثورية بأدوات عسكرية وإعلامية وسياسية وجماهيرية واقتصادية ، وقد يستغرق الأمر سنوات طويلة. وعلى رغم أن الدكتور عصمت لم يغفل أهمية أي انتصار تحقّقه الثورة الفلسطينية على أرض فلسطين، إلا أن معياره لمدى دقة الانطلاق من غايات قومية يستند في الواقع فقط على مقياس نفسي للتحرر الذاتي ، لكن تركيبة هذا المقياس في ظل تعدد فصائل الثورة الفلسطينية وحتى تعدد التيارات القومية ذاتها مما لا يمكن في الواقع إلغاؤه على الفور أو صهره تلقائياً في تنظيم قومي واحد كان يفرض عليه أهمية أن يتحدث عن مستويات التقارب أو التباعد بين الرؤى والتنظيمات والتيارات القومية ذاتها على محك الالتزام القومي ، كذلك مستويات الجدل الداخلي بين القطري والقومي في النضال الفلسطيني.

### المآل إلى الطريق المسدود

عندما انطلقت الثورة الفلسطينية حققت مكاسب سياسية وإعلامية ونضالية على المستوى العربي والعالمي، ويذكر الدكتور عصمت أن الثورة الفلسطينية أخذت تتقدم حتى حرب تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩٧٣ وقمة الرباط عام ١٩٧٤ ولكن على الطريق المسدود . فهي وإن تقدمت إلى موقع الاعتراف العربي الكامل بمنظمة تحرير فلسطين وتمثيلها للشعب الفلسطيني، إلا أن هذا الاعتراف كان مصحوباً بتحميل الثورة الفلسطينية وحدها مسؤولية تقرير مصير مستقبل فلسطين ، وكان ذلك ينطوي على معنى خطير، وهو التخلي عن مسؤولية الإسهام في تحرير فلسطين بالأسلوب الذي اختارته الثورة . وكأن مفكرنا القومي يتحدث بيننا اليوم بإحساسه القومي الثوري وبصلابته المنهجية فقد حدث بالفعل ما كتب عنه سيف الدولة في منتصف السبعينيات قائلاً " وتقدمت الثورة الفلسطينية إلى موقع كسبت به صلاحية تلقي أي أرض تتحرر وإقامة سلطة وطنية عليها ولكن الأرض المقترح تقديمها إلى الثورة الفلسطينية ذات حدود مع باقي فلسطين مطلوب أن تضمن السلطة الوطنية أمنها كما أن الرأي العام

العالمي نفسه ما يزال يجمع على أن ذات السلام الذي لن يستقر في غيبة الشعب الفلسطيني لن يستقر أيضاً إلا بقبول الوجود الإسرائيلي في فلسطين " (٢٥).

وهكذا تبدو ملامح "السور" الذي أقيم ضد الانطلاق القومي للثورة الفلسطينية وقد أكملته منظمة الأمم المتحدة عندما استقبلت ياسر عرفات وأعطت للثورة مقعد المراقب إيذاناً بالطلب منها أن تلتزم بميثاق الأمم المتحدة " فلا تستولي على الأرض بالقوة " وتحترم- أي الثورة الفلسطينية- قرارات الأمم المتحدة التي تعترف بالوجود الإسرائيلي . ويطرح سيف الدولة مبدئين أساسيين لإحداث تدخل ثوري يغير مسيرة تطور الثورة الفلسطينية ويحررها من الانزلاق في الطريق المسدود وهما (٢٦):

أولاً : " الحيلولة دون أن تصل الثورة إلى نهاية الطريق المسدود إما بتحطيم المجهودات التي تتجمع لتقيم سداً على طريقها أو بشق طرق احتياطية تستطيع الثورة أن تنفذ منها مستأنفة مسيرتها بدون حاجة إلى مواجهة كل القوى في نقطة تجمع واحدة ."

ثانياً : تنمية إمكانات الثورة بحيث تكون- في اللحظة الحاسمة- قادرة على تحدي كل القوى التي تتجمع لتسد عليها طريقها إلى غايتها الاستراتيجية."

ومن جانب آخر فقد طالب د. سيف الدولة من الثورة الفلسطينية أن تركز على وحدة التنظيم وليس وحدة الرأي أي وحدة فصائل الثورة في جبهة للدفاع عن الثورة ذاتها بكل فصائلها. وينتقد الثورة الفلسطينية لأن بدايتها حملت أعباء الإقليمية ولم تستغل مختلف الظروف المؤاتية أو المساعدة لكي تغير نظامها الداخلي الذي ظل قائماً على أساس شرط الانتماء إلى الإقليم الفلسطيني ولم تسمح لغير المقيمين أو النازحين من فلسطين إلا بمساندة الثورة فرادى ومن خارج المؤسسات التي يتضمنها تنظيمها العسكري وال جماهيري. فقد نشأت واستمرت مستقلة التكوين عن الجماهير العربية، والجماهير العربية بدورها كانت وما تزال مستقلة التنظيم والحركة عن الثورة الفلسطينية. ويلفت سيف الدولة أنظارنا إلى أنه مع منتصف السبعينيات أوشكت مرحلة الثورة الفلسطينية على نهايتها وحقت فيها أقصى ما تسمح به طاقاتها وظروفها الإقليمية. وكان ينبغي عليها أن تعد نفسها لتكون جزءاً عضويًا من متطلبات المرحلة التالية: مرحلة الثورة العربية.

كانت هناك ضرورة موضوعية قصوى لأن تستفيد الفصائل الفلسطينية من حصيلة النضال الإقليمي، ومن أهم الدروس المستفادة هنا " أن تحرير الجماهير العربية من القهر السياسي والاقتصادي الذي يشل حركتها في أماكن كثيرة من الوطن العربي هو من صميم الشروط الموضوعية لتحرير فلسطين . من الدروس المستفادة أن التحام تلك الجماهير في منظمة ثورية قومية غير مجزأة إقليمياً هو من صميم الشروط الموضوعية لتحرير فلسطين " (٢٧).

تبدو حيوية الجدل الداخلي في المنطلق القومي لرؤية سيف الدولة للثورة الفلسطينية من مشاهدة الوقائع المتتالية لانحسار الثورة إلى منظمة التحرير، إلى انفراد "فتح" بالقرار الفلسطيني بعيداً عن الفصائل الأخرى، بل بعيداً عن إرادة الشعب الفلسطيني ذاته. وبالطبع فإن الأنظمة العربية قد أسهمت بالدور الرئيسي في تقليص وحصار الثورة ومنظمة التحرير وتهميش القضية الفلسطينية وتشويهها في أعين الجماهير العربية، كما فعل نظام السادات، وأسهمت حكومات عربية عديدة في دفع منظمة التحرير ذاتها إلى القبول بصيغة الحكم الذاتي، بل والدفاع عن هذه الصيغة والدفاع عن الاعتراف بإسرائيل، ذلك الاعتراف الذي أسماه مفكرنا القومي "الاعتراف المستحيل" . وتبدو صلابة المنطلق القومي عنده من تأكيده المستمر على ضرورة وضع البعد الاستراتيجي دائماً في بؤرة التركيز. ولكن الأمر كان يحتاج من مفكرنا القومي ومن مختلف الحريصين على قومية القضية الفلسطينية أن يقدموا للأمة خبرات النضال العالمي في استمرار الثورة لكسب القضية ومن أهمها خبرة الجيش الجمهوري الإيرلندي وخبرة فييتنام (التي تعرض لها مفكرنا القومي في سطور قليلة) وخبرة النضال الجزائري . ولكني أعتقد أن أفضل خبرة للمقارنة هنا هي خبرة أعدائنا، خبرة الحركة الصهيونية والكيان الصهيوني في حشد مختلف الطاقات والإمكانات الصهيونية في جميع أنحاء العالم وخصوصاً في مراكزه المؤثرة : الولايات المتحدة، وبريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، والاتحاد السوفياتي سابقاً ، وروسيا حالياً ، في حشد هذه الطاقات والإمكانات من أجل استمرار المشروع الصهيوني ومن أجل ضمان التوسع والهيمنة الإسرائيلية . وهي بصراحة تبدو لنا نتائج مبهرة وحقت أعلى قدر من النجاح. فنحن نلاحظ اشتراك الصهاينة في جميع أنحاء العالم في القتال إلى جانب الجيش الإسرائيلي وفي عمليات التجسس وسرقة أسرار التقانة الحديثة وعلى رأسها تقانة الصواريخ والقنبلة النووية إذا لم تكن الوسائل الشرعية

متاحة. ولم يتهم أحد حتى من الحكام العرب والمتقنين والكتاب الدائرين في أفلاكهم الحركة الصهيونية والكيان الصهيوني بعدم مشروعية توالي الهجرات الصهيونية من اثيوبيا وروسيا وغيرها وبعدم مشروعية تجنيد القيادات الصهيونية والمرتزة الصهيونية من اليهود وغير اليهود في إطار التحالف البروتستانتى الأصولي- الصهيوني النامي منذ فترة في الولايات المتحدة في خدمة أهداف التفوق والتوسع والاستيطان والسيطرة الإسرائيلية، بل على العكس حدث في الجانب العربي والفلسطيني أن أدخلت القيادة الفلسطينية نفسها بتشجيع من نظم عربية إقليمية متواطئة في سلسلة إعلانات واتفاقات ومذكرات في أوسلو وواشنطن والقاهرة وشم الشيخ و" واي ريفر"، ليس فقط بهدف اختزال مجمل عمليات القضية إلى سلطة الحكم الذاتي، بل أيضاً إلى تعاون أمني واستخباري وثيق بين أجهزة الأمن الفلسطينية وأجهزة الأمن والاستخبار الإسرائيلية لمطاردة وملاحقة واعتقال ومحاكمة الراضين لتسويات أوسلو وما بعدها.

### مهام مرحلية تمتاز بالغاية الاستراتيجية

إذا كانت المهام الملحة أمام الثورة الفلسطينية تتجلى في الإعداد العسكري القتالي المتواصل ووحدة القوى الثورية الفلسطينية والارتباط المتجدد بال جماهير العربية ، فإن مفكرنا القومي يتحدث عن مهام ملحة مرحلياً لا تتناقض مع المنطلق الاستراتيجي وغاياته ، بل ترفده وتطعمه، وهي تخص الشعب العربي والقوى الجماهيرية المقاتلة (فصائل المقاومة)، وهي مهمات ثلاث ملحة (٢٨):

١- تحديد الأهداف الاستراتيجية تحديداً قاطعاً ، والمصدر الوحيد هنا لشرعية حقوق الشعب الفلسطيني هو حقه التاريخي في أرضه. وتكون الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني هي حقه في استرداد أرضه- كامل أرضه- من المغتصبين. وهنا يكون الهدف الاستراتيجي للنضال العربي هو إلغاء وتصفية دولة إسرائيل ولذلك الهدف ضوابط مهمة:

أ- أنه بمجرد انتهاء الصراع وتحرير الأرض العربية تصبح سلامة وأمن كل البشر المقيمين في فلسطين ضمن مسؤولية وضمأن الشعب العربي.

ب- لن يتأثر موقف الشعب العربي بالانتماء الديني، بل سوف يكرس المساواة .

ج- لكل عربي حق مشروع في أن يقيم ويعمل ويتنقل في أي مكان من الوطن العربي في فلسطين أو في غيرها.

٢- ضرورة الإفلات من شباك المناورات السياسية التي يراد للشعب العربي والفلسطيني أن يقع في أسرها كأن يقال إن القانون الدولي هو مصدر المشروعية أو أن قرارات الأمم المتحدة هي مصدر المشروعية.

٣- إلغاء وتصفية دولة إسرائيل، وهذا ليس تحليقاً في الخيال ولكنه يستند إلى منطق نعرفه جميعاً وهو "بضدها تعرف الأشياء". فقد كان وزير خارجية إسرائيل "أبا ايان" قد أجاب عن سؤال عام ١٩٦٧ مفاده : ماذا كان الإسرائيليون سيفعلون لو تم القضاء على دولتهم من جانب العرب؟ فذكر على الفور "كنا سنبدأ من جديد لإقامة دولة إسرائيل" (٢٩).

وقد طرح سيف الدولة دعوى قوية مضادة للدعوة إلى اعتراف منظمة التحرير بإسرائيل في النصف الأول من الثمانينيات ، وذكر أن الاعتراف هذا إن تم يكرس إقراراً بحق إسرائيل في الوجود، ولكنه لن ينشئ للمعترف- أي منظمة التحرير- دولة . وفي القانون الدولي أيضاً لا يقر للمعترفين بدولة. ولا تزيد حدود التفويض المعطى للمنظمة كمثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني عن استرداد الأرض المغتصبة، لكن هذا التفويض يكون باطلاً إذا ما أقدمت المنظمة على الدخول في اتفاق أو تصرف يستبعد المنظمة ذاتها (٣٠).

وحتى الاعتراف إذا كان خطأ تكتيكياً أو فعلاً مرحلياً فلا ينبغي أن يضر بالهدف الاستراتيجي وهو يجب ألا يتم إلا في نطاق مبدأ أو نظرية أن أرض فلسطين من حق الشعب العربي . إن المنطلق القومي للدكتور عصمت سيف الدولة جعله يصل إلى أقصى درجات القسوة في وصف حال منظمة التحرير إذا ما اعترفت بإسرائيل على حساب إهدار الغاية الاستراتيجية ، فقد ذكر أن هذا الاعتراف يحول المنظمة من منظمة تحرير فلسطينية إلى "منظمة صهيونية" (٣١).

وقد كتب الدكتور عصمت سيف الدولة يمتدح انتفاضة أطفال الحجارة بالوسائل ويعتبرها بادرة أمل جديدة وسط ركاب الضباب والتسوية الهزيلة والتراجع عن المنطلقات الاستراتيجية القومية، واعتبر أيضاً أن الانتفاضة بريئة من "التلوث الإقليمي" فهم أطفال وشباب لم يعرفوا

غير العروبة هوية ، حتى حين ينتسبون إلى فلسطين الأرض التي لا هوية دولة لها ولأنهم لم يخالطوا الدول العربية ولم يتعاملوا مع الحكام الإقليميين ، لأنهم ولدوا وشبوا بعيداً عنهم وبدون حاكم إقليمي من بينهم (٣٢) .

وكما نعرف فإن الإطار المرجعي المعرفي الذي يرفد منهج ونظرية الثورة العربية اللذين طرحهما الدكتور سيف الدولة هو مشروع التغيير الثوري الذي يقوم على معادلات منهجية : العروبة والإسلام، والحرية والوحدة والاشتراكية ، وهو مشروع للتغيير الاجتماعي بهدف صناعة التقدم . وان كان يمكن القول إنه لا يمكن لنا في إطار بحثنا عن الموقف القومي عند سيف الدولة من قضية فلسطين أن نطلب من سيف الدولة أن يقدم دراسات تحليلية عن موقفه من العلمانية إذ حدد مقومات منهجه في كتابه عن العروبة والإسلام باعتبار أن منهجه الجدلي الإنساني ليس جافاً أو مفرغاً من أي مشروع للبناء والتقدم، بل ينطلق من إبداعات الحضارة العربية الإسلامية.

ويمكن أن نفهم من خلال قراءة شاقة ومضنية لفكر سيف الدولة أنه لا ينطلق من المرجعية الغربية في القومية وإن كان يؤخذ على منهج ونظرية الثورة العربية في فهمها لقضية فلسطين أن صاحبهما الدكتور عصمت سيف الدولة لم يعط جهداً إضافياً لتوضيح وتأصيل وتجديد معادلات وقوانين ومنطلقات المنهج والنظرية حتى يتم التصدي بقوة لتحليل الموقف القومي لمفكرنا من قضية فلسطين.

\*\*\*

## هوامش

(١) عصمت سيف الدولة ، عن الناصريين .. وإليهم ( القاهرة : دار الموقف العربي ، ١٩٨٩ ) ، ص ٤١

(٢) عصمت سيف الدولة ، أسس الاشتراكية العربية ( بيروت : دار المسيرة ، [ د.ت. ] ) .

(٣) سيف الدولة ، عن الناصريين... وإليهم ، ص ٩٥ .

(٤) سيف الدولة، أسس الاشتراكية العربية.

(٥) رغم ما يتميز به المفكر العربي الكبير محمد عابد الجابري من صرامة منهجية ودقة تحليلية علمية فإن معالجاته للفكر القومي العربي تتسم إلى حد ملموس بغلبة طابع التعميم ومن دون تمييز منهجي ومعرفي بين مختلف التيارات القومية العربية ومختلف المفكرين القوميين ، فقد اتخذ من تأثر ساطع الحصري بتجربتي الوحدة الألمانية والوحدة الإيطالية منطلقاً للتعميم على الاتجاهات المختلفة والمتعددة داخل الفكر القومي العربي ، ويقول في ذلك : .. وباختصار لقد كانت مرجعية الفكر القومي العربي في هذا المجال (يقصد النظرية القومية)، وقد بقيت مرجعية أوروبية "، انظر: محمد عابد الجابري ، " الفكر القومي العربي . حاضر ومستقبل ، " المستقبل العربي ، السنة ١٨ ، العدد ١٩٧ (تموز/ يوليو ١٩٩٥)، ص ١١ .

(٦) خالد شوكات ، " دور المرجعية الاسلامية في إعادة بناء النظرية القومية ، " المستقبل العربي، السنة ٢٢ ، العدد ٢٤٤ (حزيران/ يونيو ١٩٩٩)، ص ٤١ - ٤٢ .

(٧) عصمت سيف الدولة ، نظرية الثورة العربية ، ٧ ج ( بيروت : دار المسيرة ، ١٩٧٩ )، ج ٣ : المنطلقات، ما هو مجتمعنا... من نحن؟، ص ١٤٢ .

(٨) المصدر نفسه، فقرة ١٧٠ .

(٩) انظر في ذلك . عبد الوهاب المسيري ، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية : نموذج تفسيري جديد، ٨ مج (القاهرة : دار الشروق، ١٩٩٩) ، مج ٤ : الجماعات اليهودية : تواريخ .

(١٠) عصمت سيف الدولة ، التقدم على الطريق المسدود : رؤية قومية للمشكلة الفلسطينية (بيروت : دار المسيرة، ١٩٧٩)، ص ١١ - ١٢ .

(١١) انظر في ذلك : عبد الوهاب المسيري ، اليد الخفية : دراسات في الحركات اليهودية والهدامة والسرية ( القاهرة : دار الشروق، ١٩٩٨ ) ، ص ٢٧٨ - ٢٨٠ .

(١٢) سيف الدولة ، المصدر نفسه ، ص ١١ - ١٨ .

(١٣) المصدر نفسه، ص ٢٢ .

(١٤) المصدر نفسه، ص ٢٤ .

(١٥) انظر في ذلك : المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج تفسيري جديد ، مج ٦ : الصهيونية.

(١٦) ورد في : سيف الدولة ، المصدر نفسه ، ص ٤٤ - ٤٥ .

(١٧) المصدر نفسه، ص ٥٤ - ٥٦ .

- (١٨) المصدر نفسه، ص ٦٠ - ٦١.
- (١٩) انظر في ذلك : سيف الدولة، نظرية الثورة العربية، ومحمد عبد الشفيق عيسى، القومية العربية (الإطار النظري- المسار التاريخي- الأزمة والتجديد) (القاهرة : معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٩٧)، ص ٤٠.
- (٢٠) سيف الدولة، التقدم على الطريق المسدود: رؤية قومية للمشكلة الفلسطينية، ص ٦٨.
- (٢١) المصدر نفسه، ص ٦٩ - ٧٢.
- (٢٢) المصدر نفسه، ص ٧٧ - ٨٠.
- (٢٣) ورد في : المصدر نفسه، ص ٨٢.
- (٢٤) النظر في ذلك : محمد خالد الأزعر، حكومة عموم فلسطين في ذكراها الخمسين (القاهرة. دار الشروق، ١٩٩٨).
- (٢٥) سيف الدولة، المصدر نفسه، ص ١١٧.
- (٢٦) المصدر نفسه، ص ١٢٢. انظر ايضاً . عصمت سيف الدولة ، الطريق إلى دولة أريحا : الموقف القومي (دمشق: دار الأتصار، ١٩٩٥) ، ص ٢٢٦ - ٢٢٩.
- (٢٧) المصدر نفسه، ص ١٣٥.
- (٢٨) المصدر نفسه، ص ١٦٠ - ١٦١.
- (٢٩) المصدر نفسه، ص ٢١٧.
- (٣٠) المصدر نفسه، ص ٢٣٨.
- (٣١) المصدر نفسه، ص ٢٤٩.
- (٣٢) المصدر نفسه، ص ٣٠٤.

باحث عربي - من الامارات العربية المتحدة

إنني وإن كنت متفقاً تماماً مع مضمون البحث القيم الذي بين أيدينا إلا أن لي ملاحظات على بعض ما تضمنه، كما على بعض ما سكت عنه. وتوخياً للإيجاز أقدم ملاحظاتي في نقاط :

١- يذكر الباحث في معرض إيضاح موقف د. سيف الدولة من عروبة فلسطين تجاه الادعاءات الصهيونية ( وينبه مفكرنا القومي إلى أنه لا يحتج بأية وقائع تاريخية سابقة على التكوين القومي العربي) ويعتبر ذلك من قبيل الصلابة المنهجية عند د. سيف الدولة ، من دون أن يخضع مقولته هذه للفحص والتدقيق. إذ من غير المنطقي والعملي الاحتجاج بها على الآخر وبالذات اليهودي . والأكثر منطقياً وعملياً مواجهة الادعاءات الصهيونية بحقائق تاريخ فلسطين الذي لا يخرج عن السياق التاريخي لبقية نواحي الوطن العربي ، بل إنه يقع في قلب هذا السياق- إن جاز التعبير - ذلك أن اليبوسيين الذين بنوا حصن " ييوس " وأقاموا من حوله مدينة القدس نزحوا عن الجزيرة العربية في الألف الثالث قبل الميلاد وكذلك فعل الكنعانيون من بعدهم ، والآراميون أيضاً . وكلها شعوب من الجنس العربي . ومن ناحية ثانية فإن فلسطين، وبقية بلاد الشام كانت معبر التفاعلات السلمية والحربية في ما بين الامبراطوريات التي قامت في كل من مصر ووادي الرافدين والتي تواصلت منذ الألف الثالث قبل الميلاد حتى الغزو الفارسي الذي وصل دلنا مصر سنة ٥٢٥ ق. م . ولأن شعوب مصر ووادي الرافدين تعود لذات الأصول السلالية واللغوية لشعوب بلاد الشام كان التفاعل عميقاً ومنتجاً . وعندما خضعت المنطقة لسلطان الفرس واليونان والرومان قرابة أحد عشر قرناً احتفظت شعوبها بتمايزها القومي واللغوي من الغزاة. والثابت أنها لم تقاوم الفاتحين العرب المسلمين ، بل رحبت غالبيتها بهم باعتبارهم محررين لها من السيطرة الأجنبية، وسرعان ما تعربت بتأثير ظروف الواقع المستجد المتميز كيفية عنها خارج الإطار القومي العربي. ولما كان شعب فلسطين- كبقية شعوب الوطن العربي- قد تفاعل مع الفاتحين وأصبح مثلها عربي اللغة والثقافة وأنماط السلوك ، فإن عروبوته تمتد إلى فجر التاريخ (١)، بخلاف نوي الأصول

العربية من المستوطنين الصهاينة الذين يجسدون استعماراً استيطانياً منبت الجذور بالأرض التي زرع فيها قسراً. وهكذا يتضح أنه من خلال القراءة المعمقة لتاريخ فلسطين منذ بداياته يمكن دحض المزاعم التاريخية اليهودية

٢- في تناول الباحث إيراز د. سيف الدولة للموقف القومي التقدمي في مواجهة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني، يركز على أنه موقف لا يستند إلى أسس الدين أو العرق أو العنصر، موضحاً السمة التقدمية للموقف القومي . غير أنه في تناول إشكالية تهجير الصهاينة إلى فلسطين لا يأتي إلا بشكل عابر عبر الدور الاستراتيجي للاستعمار الأوروبي في ذلك . فالثابت تاريخياً أن أول من دعا لتهجير يهود أوروبا إلى فلسطين كان نابليون بخطابه أمام أسوار عكا في نيسان/ أبريل ١٧٩٩، وأن بريطانيا في أعقاب نجاحها في رد جيوش إبراهيم باشا من بلاد الشام سنة ١٨٤٥ وضعت خطة لإقامة تجمع بشري غريب يفصل عرب آسيا عن عرب أفريقيا ، ليعطل فاعلية مصر القومية ، ويمنع الوحدة العربية ، وبالتالي فإن الاستعمار الاستيطاني الصهيوني لفلسطين له غاية محددة غير قاصرة على شعب فلسطين ، وإنما هي موجهة لشعب مصر بخاصة ، والعرب بعامة ، وما كان شعب فلسطين ليتحمل الصدمة الكبرى للعدوان الاستعماري- الصهيوني، إلا لأن ترابه الوطني يشكل الجسر الواصل بين عرب آسيا وعرب أفريقيا. فالوجود الصهيوني وجود غائي ، والقوى الاستعمارية هي المنشئة والراعية لهذا الوجود. والاستجابة للتحدي الذي يشكله لا تكون إلا قومية ، وفي مواجهة التحالف الاستراتيجي الامبريالي- الصهيوني، ودون ذلك جهود لا مجدية. وهذا ما ينبغي تأكيده وتسليط الضوء عليه بكثافة في زمن التطبيع والرعاية الأمريكية لما يسمى تجاوزاً "عملية السلام".

٣- لا أحسب أن الشعار الذي رده هرتزل ورفاقه " أرض بلا شعب لشعب بلا أرض " وليد جهل بما هو عليه الواقع الديمغرافي في فلسطين، أو تجاهل لكون فلسطين يومذاك مجرد طوائف تنتمي للأمم وشعوب شتى . وإنما كان الشعار وترديده إعلاناً عن استراتيجية التحالف المضاد المستهدفة اقتلاع عرب فلسطين من أرضهم وإحلال الاستعمار الاستيطاني الصهيوني محلهم . بدليل ما ورد في تصريح بلفور سنة ١٩١٧ الذي لم يأت على ذكر الشعب العربي في فلسطين ولم يعترف له بالسيادة على أرضه، ولا بأي حقوق سياسية. ويتفاعل قوة

وإمكانيات التحالف المضاد مع واقع التجزئة والتبعية والتخلف العربي أمكن تحقيق الاستراتيجيا على المحورين . فعلى أرض فلسطين اليوم خمسة ملايين مستوطن صهيوني، تكثف الجهود لإعادة تشكيلهم بحيث يصبحون شعباً له هويته وتاريخه وثقافته التي تميزه من بقية شعوب الأرض بمن في ذلك يهود تلك الشعوب. وفي الشتات العربي والدولي قرابة أربعة ملايين ونصف مليون عربي فلسطيني اقتلعوا من أرضهم بوسائل مختلفة ، وخضعوا وما زالوا يخضعون لمحاولات طمس الهوية ومحو الذاكرة والاندماج طوعاً أو قسراً في أماكن تواجدهم . ومن المهم في تقديرنا إيضاح هذه الحقيقة في مواجهة محاولات توطين وتجنيس اللاجئين والنازحين والتعاطي مع قضيتهم على أساس "إنساني" ، كما هو جار في المحادثات المتعددة الأطراف.

٤- من موقعه كفقيه دستوري تناول د. سيف الدولة مسألة الاعتراف بالكيان الصهيوني، وسلط الضوء على ثلاث مسائل : الأولى أن إيضاح عدم اعتراف إسرائيل بقرار التقسيم كأساس لقيام دولة فلسطين العربية ضمن الحدود التي رسمها، يسلب الكيان الصهيوني مشروعيته الدولية، لأنه إنما قام استناداً لقرار. والثانية ، بيان أن اعتراف الدول والمؤسسات الدولية بالدولة العبرية لا يرتب لها شرعية ، هي فاقدتها أصلاً ، كما أنه في الواقع لا يعني الالتزام بالمحافظة عليها. أما المسألة الثالثة فهي أن اعتراف الدول العربية بإسرائيل، وكذلك شعب فلسطين بأكمله ، لا يغير من طبيعة إشكالية التواجد الصهيوني على التراب الفلسطيني ، ذلك لأن الأمة العربية تكوين تاريخي مشترك بين الأجيال المتعاقبة، والأرض العربية شراكة بين الشعب العربي، وبالتالي ليس بمقدور أي جيل عربي أن يتنازل عن حق الأجيال اللاحقة في أرض الجدود، ولا بإمكان أي شعب عربي أن يسلم للعدو ببعض أرض الأمة.

٥- يقيناً أن الحركة الصهيونية أسهمت في إفساد عملية اندماج يهود أوروبا في أوطانهم ومجتمعاتهم، غير أنها لم تكن الوحيدة في ذلك ، ولا صاحبة الدور الأعظم . فمن جهة كانت الجماعات اليهودية المحافظة في مقدمة مقاومي الاندماج ، وناهضت - ولم تزل تناهض- ذلك بكل قوة، حفاظاً على الخصوصية اليهودية. ومن جهة ثانية لم تعمل الدول العربية على استيعاب الجماعات اليهودية في مجتمعاتها، وعلى العكس من ذلك عمل العديد منها في الاتجاه المضاد، بدافع العنصرية الأوروبية بالنسبة للبعض- كما عند هتلر والنازية- وبدوافع

استعمارية كما فعل بالمرستون وصحبه في أربعينيات القرن التاسع عشر، والذين عملوا جاهدين لإقامة الأساس المادي للهجرة. ففي سنة ١٨٤٨ أقامت بريطانيا في القدس أول قنصلية وأول كنيسة بروتستانتية، وكان كل من القنصل والأسقف يهودياً منتصراً ، وكان من مهام القنصل موافاة وزارة الخارجية البريطانية بتقارير شهرية حول الهجرة والاستيطان اليهوديين، وفي سنة ١٨٥٤ انتزعت من السلطان العثماني عبد المجيد فرماناً يجيز لليهود حق التملك في فلسطين.

٦- يقدم د. سيف الدولة حلاً قومياً لمشكلة وجود اليهود ذوي الأصول العربية في فلسطين، باعتبارهم مواطنين عرباً في دولة الوحدة . غير أن الحل الذي يشير إليه الباحث باستشهاده بما كتبه د. سيف الدولة في التقدم على الطريق المسدود لم يأت على ذكر حل إشكالية اليهود ذوي الأصول غير العربية الذين أتوا إلى فلسطين، والذين توالدوا فيها. وفي تقديرنا أن التجربة العربية في الجزائر، كما التجارب العالم ثالثة مع الاستعمار الاستيطاني، قدمت الحل الأمثل لإشكالية "المعمرين" الذين زرعوها خارج أرضهم تاريخياً . وكلها كانت حلولاً جاءت بعد انتصار قوى المقاومة ، وخيرت المستوطنين بين البقاء كمواطنين ، أو كمقيمين أجنب ، أو الرحيل الطوعي .

٧- يقيناً أن هناك علاقة جدلية في ما بين تحرير فلسطين والوحدة العربية ، وقد أسس د. سيف الدولة تصوره لذلك على جدل منهجي تركيبي ، وباعتبار أن تطورات الصراع الطويل والمعقد والصعب ستضع المناضلين من أجل تحرير فلسطين أمام اختيار مصيري فإما إقامة دولة الوحدة وإما التعرض لهزيمة أخرى . وفي تقديرنا أن إقامة إسرائيل لتكون مانعة للوحدة العربية معطلة للتفاعل العربي من ناحية، وكون عمقها الاستراتيجي ممتداً على جانبي الأطلسي من ناحية ثانية ، تسببا في استحالة إلحاق الهزيمة العسكرية بها إلا من خلال دولة طوق عربية - تماماً كما كان ذلك مع الإمارات الصليبية، وبشرط أن يتوفر ظرف دولي يعطل فاعلية عمقها الاستراتيجي- وذلك ما حدث بالنسبة للإمارات الصليبية أيضاً عندما تراخت أوروبا في دعمها بعد أن طال الزمن من دون أن تحقق استراتيجيا دفاعية-ردعية تقوم على محاور ثلاثة : بناء قوة عسكرية ذات قدرة على فاعلية ، ورد العدوان بالعدوان، وتقوية النظام الإقليمي العربي في إطار نظام ضمان جماعي عربي مستقل (٢) ، والعمل إلى

جانب ذلك على إحكام العزلة العالمية من حول إسرائيل. وفي تقديرنا أن الاستراتيجية الناصرية كانت أكثر واقعية من الوقوف عند تأكيد مجرد جدلية الوحدة والتحرير برغم صحتها نظرياً .

٨- ينقل الباحث عن مفكرنا القومي قوله " إن وحدة ١٩٥٨ (بين مصر وسوريا) فشلت في تحرير فلسطين لأسباب بسيطة ، لأنها كانت استجابة قومية ، ولكنها لم تكن وحدة قومية ، فشلت في أن تتحول إلى وحدة قومية " . ومع احترامي لمفكرنا الراحل ، إلا أنني أرى في قوله هذا تبسيطاً للأمور ورؤية لا تأخذ حقائق الواقع الموضوعية بالاعتبار. إذ لم تأخذ بالحسبان أن قرار وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني الصادر عن عصبة الأمم تضمن النص على التزام بريطانيا بقيام الوطن القومي اليهودي، كما ورد في تصريح بلفور، وكان القرار الوحيد في عصبة الأمم الذي صدر بإجماع الدول الكبرى ، تماماً كما جاء قرار التقسيم رقم ١٨١ الصادر عن الأمم المتحدة في ٢٩ / ١١ / ١٩٤٧ نتيجة تأييده من جميع دول الكتلة الرأسمالية عدا بريطانيا التي امتنعت عن التصويت، وجميع دول الكتلة الشيوعية عدا يوغسلافيا التي عارضت التقسيم . وكان القرار الوحيد الصادر عن الأمم المتحدة بتأييد الكنتتين . ولم تكن الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ليسمحاً بإزالة إسرائيل، كما أن إمكانيات دولة الوحدة لم تكن في مستوى يؤهلها لمواجهة التحالف الاستراتيجي الأمريكي - الإسرائيلي ، بالإضافة إلى توتر علاقاتها مع الاتحاد السوفياتي والكتلة الشرقية على خلفية انحراف عبد الكريم قاسم والشيوعيين بثورة العراق سنة ١٩٥٨ . ومن ثم ففي ما قيل بحق دولة الوحدة ظلم بين الدولة وقيادتها الثورية ، وخضوع آلي لمنطلق ايديولوجي صارم يتجاهل تهاجلاً تاماً حقائق الواقع الموضوعية والذاتية.

٩- لا شك في أن الأمة تعيش واقع التجزئة، وأن في الوطن العربي قوى إقليمية مستفيدة من هذا الواقع وتدافع عنه. غير أن ذلك مختلف كميّاً عن الكيان الصهيوني المغتصب للتراب العربي في فلسطين. ومن التعسف في إطلاق الأحكام وضع كيانات التجزئة العربية مع الكيان الصهيوني على مستوى واحد، باعتبار أن وجود كل منها لا يتفق مع وحدة الوجود القومي ، ويتناقض مع غاية النضال القومي إلغاء التجزئة وتحقيق الوحدة . ذلك لأن الدول القطرية العربية تمثل مجتمعات ذات وجود تاريخي في الأرض العربية، ولم يحل شعب أحدها محل

أي شعب عربي آخر، والتكامل في ما بينها لتحقيق الوحدة غير مسدود الأفق ويظل احتمالاً وارداً . وذلك على اختلاف كفي على المحاور الثلاثة مع الكيان الذي يحتوي تجمعاً وافداً ، حل محل شعب عربي مشرد، والتكامل القومي معه مستحيل موضوعياً.

١٠- لا شك في أن د. سيف الدولة محق في كل ما كتبه حول الإقليمية العربية، وكان مصيباً في تحذيره من مغبة المغالاة في الشعور الإقليمي الفلسطيني ، ومن النتائج التي يمكن أن تترتب على المناداة باستقلالية القرار الفلسطيني . وقد جاءت الأيام تثبت صحة ما حذر منه. والملاحظ بهذا الخصوص أن تشكيل منظمة التحرير الفلسطينية بقرار من مؤتمر القمة العربية سنة ١٩٦٤ وإبراز كيان سياسي فلسطيني إنما كان غايته التصدي لمحاولة إلغاء الهوية الفلسطينية لمصلحة المشروع الصهيوني ، وإبراز كيان فلسطيني يمكن مخاطبة العالم باسمه. وكان للرئيس عبد الناصر دور تاريخي في إظهار دعم منظمة التحرير الفلسطينية وتقديم قياداتها لزعماء العالم . إلا أن القيادة التي تولت مسؤولية المنظمة غالت في ممارساتها الفردية ومواقفها الإقليمية، بحيث انتهى العمل بشعار " القرار الفلسطيني المستقل " إلى أن يصبح تكئة للتفرد باتخاذ قرارات مصيرية في قضية قومية من دون التزام من أي نوع بالثوابت القومية، ومن غير تنسيق مع أي مستوى مع شركاء المسيرة والمصير. وبالتالي فإن قيادة المنظمة وأجهزتها التنفيذية والتمثيلية هي التي تتحمل المسؤولية الأولى عن الوقوع في ما حذر منه د. سيف الدولة. إذ إنها لم تقم بتطوير الثورة، ولا بنسج علاقات نضالية مع جماهير الشعب العربي حيث كان لها وجود فعال، إلى جانب جملة من الممارسات الخاطئة. وكل ذلك نتاج طبيعي لافتقاد استراتيجيا ذات بعد قومي في مواجهة الحركة الصهيونية تأخذ في الحسبان علاقتها العضوية بالإمبريالية، إلى جانب ما تميزت به القيادة الفلسطينية من فردية وقصور رؤية ، وإن لم تعد الشجاعة والحماس والانفعال العفوي ، ما أفقدها الحكمة في معظم قراراتها حين طغى الحماس والانفعالية على العقلانية والحسابات الدقيقة.

١١- يقيناً إن الحركة الصهيونية حققت نجاحاً ، وأن قيادتها تتمتع بدرجة عالية من الكفاءة ، وأنها تميزت بقدر ملحوظ من الممارسة (الديمقراطية) وامتلاك مؤسسات المجتمع المدني . غير أن مقارنة الواقع الصهيوني بالواقع العربي العام والفلسطيني الخاص لا تستقيم ، والقياس على الحالة الصهيونية لا يصح، وذلك بسبب العلاقة العضوية للصهيونية مع الإمبريالية

وتحالفهما الاستراتيجي ، في مقابل وجود تناقض عدائي في ما بين الإمبريالية ومصالح وطموحات الأمة العربية وبخاصة شعب فلسطين . وتأسيساً على ذلك سلمت المؤسسات والقيادات الصهيونية من عمليات التخريب والإفساد الاستعمارية ، ولقيت من مختلف قوى الرأسمالية العالمية الدعم والمساندة والرعاية. وعلى العكس من ذلك كان تخريب وإفساد مؤسسات العمل لقومي والوطني العربي في مقدمة مهام مختلف الأجهزة العلنية والسرية لقوى التحالف المضاد. وإن كان هذا لا يلغي بأي حال دراسة تجربة العدو والتعمق في تقصي نقاط ضعفه ونقاط قوته، ومحاولة الاستفادة من ذلك ، مع إدراك التمايز النوعي بين واقعه والواقع العربي قومياً وفلسطينياً .

١٢- لقد نجحت انتفاضة أطفال الحجارة في فرض ذاتها وانتزاع اعتراف عالمي بشعب فلسطين، ووضعت الكيان الصهيوني لأول مرة منذ وجوده موضع الاتهام باحتلاله الأرض الفلسطينية وامتثانه حقوق الإنسان فيها. وبالتالي أخرجت قيادة المنظمة من العزلة والتهميش اللذين كانت تعانيهما بعد الخروج من بيروت. إذ كانت الانتفاضة معبر قيادة المنظمة إلى مؤتمر مدريد وسبيلها إلى دور على المسرح. غير أن الأداء القاصر انتهى إلى اتفاق أوسلو. وقيل في تبرير اتفاق أوسلو وتسويغه أنه الحل الممكن في ظل الظروف القاهرة، وأنه سبيل إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، غير أنه انتهى في الواقع العملي إلى أن يكون أداة تواصل مسلسل التنازلات. ولا ينكر أن أنظمة وقيادات عربية لعبت أدواراً تاريخية للوصول إلى هذه النتيجة المأساوية ، إلا أن " قصور " القيادة الفلسطينية يسر للمداخلات العربية وغير العربية تحقيق غايتها بأرخص التكاليف وأيسر الجهود.

١٣- حقاً إن التسوية- ولا أقول السلام- باتت خياراً استراتيجياً عربياً ، وفي حدود معطيات الأمر الواقع. الشيء شبه المؤكد أن تمضي التسوية إلى غايتها على مختلف المسارات ، وعلى نحو يؤمن مصالح وأمن واستقرار إسرائيل بالدرجة الأولى . ولكنها لن تكون نهاية المطاف ، ولسوف يتواصل الصراع وإن بوسائل جديدة. وإذا كان مرشحاً أن يكون هناك تصادم وتجادب مصري- إسرائيلي حول الدور القائد في المنطقة، فمن المؤكد أن تكون قضية اللاجئين والنازحين محور الصراع الأساسي الفلسطيني- الإسرائيلي... وكل من الصراع حول الدور القائد في المنطقة وحول مستقبل أربعة ملايين ونصف مليون فلسطيني قضية ذات

بعد قومي، ووثيقة الصلة باسترداد العمل القومي العربي عافيته. وهما بالتالي تقعان في صلب ما كتب ونظر له د. سيف الدولة ، وتظل جدلية العمل من أجل التكامل القومي، وتقديم الاستجابة العربية الفاعلة في مواجهة التحدي الإمبريالي- الصهيوني، الجدلية الأشد فاعلية في حاضر العمل القومي ومستقبله. ويظل كل ما خطه د. عصمت سيف الدولة حول القضية الفلسطينية ، وما قاله في حواراته له جديته وفاعليته ولن يؤثر في أهميته ومحوريته توالي السنين.

\*\*\*

### هوامش

(١) عوني فرسخ ، "حول التاريخ والهوية في الوطن العربي ، " مقال من ثلاثة أقسام ، نشر في. المستقبل العربي : السنة ٥، العدد ٤٩ (آذار/ مارس ١٩٨٣) ؛ السنة ٥، العدد ٥٠ (نيسان/ أبريل ١٩٨٣) ، والسنة ٦، العدد ٥١ (أيار/ ما يو ١٩٨٣).

(٢) محمد السيد سليم ، التحليل السياسي الناصري : دراسة في العقائد والسياسة الخارجية، سلسلة أطروحات الدكتوراه ؛ ٣ (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٣) ، ص ١١٩ .

## المناقشات

### ١ - عبد العظيم مناف

لدي تعقيب سريع على بحث أ. أحمد ثابت بشأن رؤية د. عصمت سيف الدولة للصراع العربي- الصهيوني، فقد كانت تتطرق من مفهوم ديني قومي ومن أن الصراع صراع وجود وليس صراع حدود كما قال عبد الناصر. أما الصهيوني بن غوريون فهو الذي كان يقول :  
"الأرض واحدة وطالب الأرض اثنان، ولا بد أن تكون لواحد من الاثنين ، هذا الواحد هو إسرائيل"!!!.

لهذا فقد كان الدكتور عصمت يرى أن المعادلة صفرية... إما نحن وإما الصهاينة ، ولذلك وقف بقوة كتابته وخطابه في وجه أن يكون للأنظمة والحكام حق مصادرة حقوق الجماهير في تحرير فلسطين... كل فلسطين من النهر إلى البحر ومن الماء إلى الماء وكانت كلمته المواجهة :

"الرجعية تتآمر... ثم تجتمع لتتآمر.. فإذا هو الاعتراف بإسرائيل " وهو الاعتراف الذي أطلق فيه بيانه "الاعتراف المستحيل".

### ٢ - محمد سيف الدولة

أستأذن في تقديم ثلاث إضافات إلى التحليلات المعروضة في الأوراق المقدمة ، وذلك في ما يتعلق بوضع قضية الصراع العربي- الصهيوني في البناء الفكري للدكتور عصمت سيف الدولة.

الإضافة الأولى : أن نظرية التكوين القومي التي قدمها د. سيف الدولة قدمت لنا في ما قدمت تصوراً للأطوار البشرية المختلفة التي تسبق تكوين الأمم مثل الطور القبلي والعشائري والعائلي... الخ.

واختص الطور القومي فقط بعامل الاختصاص بالأرض... وأتصور أنها بذلك قد قدمت رداً موضوعياً على ما يتردد في الأدبيات الصهيونية من ادعاء باختصاص اليهود بالأرض نظراً لوجودهم عليها في مراحل تاريخية قديمة وسابقة. وإن هذا الوجود المدعى ومن منظور نظرية التكوين القومي عند سيف الدولة هو وجود في مرحلة الأطوار القبلية والعشائرية التي لم تقتصر فقط على الجماعات اليهودية وإنما امتد ذلك الوجود ليشمل جماعات عرقية أخرى . ولكن بمجرد استكمال تكوين الأمة العربية... تصيح الأرض ملكاً وأختصاصاً للشعب العربي بأجياله المتعاقبة. ولا يكون هناك أي مجال لاستدعاء مرحلة تاريخية وأطوار تاريخية قديمة للاستدلال بها على أي حقوق مشروعة أو غير مشروعة لليهود أو لغيرهم .

الإضافة الثانية : هي ما قدمه د. سيف الدولة من تحديد منهجي لمستويات أي صراع بوجه عام والصراع العربي- الصهيوني على وجه الخصوص... وقد حددها في مستويات العقيدة الاستراتيجية (أهداف- خطط- أدوات) ثم المستوى الأخير وهو التكتيك (دراسة "الصهيونية والعقل العربي" من كتاب التقدم على الطريق المسدود ، د. عصمت سيف الدولة).

وقدم تعريفاً لمفاهيم النصر والهزيمة والاستسلام على ضوء هذا التحديد، وفرق بين النصر والهزيمة على المستوى التكتيكي أو على المستوى الاستراتيجي أو على المستوى العقائدي . وحذر من الخلط بين المرونة المطلوبة في العمل التكتيكي وبين الانهزام والاستسلام على المستوى العقائدي بتبني العقيدة الصهيونية.

وكشف في ذلك مفهوم الصهيونية والعرب والذي يتمثل في تبني العقيدة الصهيونية في ما تذهب إليه من اختصاص اليهود بالأرض المتنازع عليها... والذي تمثل ترجمته الواقعية الاعتراف بدولة إسرائيل...

ففي البناء الفكري لسيف الدولة يمثل الاعتراف بإسرائيل، سواء كان موقفاً إسرائيلياً أو موقفاً عربياً، الموقف الصهيوني من قضية الأرض ...

الإضافة الثالثة : هي ما جاء في نقد سيف الدولة لمعاهدات السلام العربية- الإسرائيلية.. من أن الاعتراف بإسرائيل بموجب هذه المعاهدات سيقدم إغراءً كبيراً إلى كل القوى المضادة لهذه الأمة لمحاولة استقطاب الأقليات القائمة في الوطن العربي... لتكرار النموذج الصهيوني...

الذي حظي أخيراً باعتراف وقبول وتعایش ومباركة معظم الدول العربية... فلم يعد هناك  
شيء مستحيل...

\*\*\*